

الحكمة الشريفة

اخترت اليوم هذا العنوان للتحدث عن الحكمة الشريفة التي ميزت الراسخين في علم التوحيد وفاض نورها على وجوههم بأقباس إلهية بهية، وترقرقت مياهاها المباركة في بساتين حياتهم ذات النسائم الرطبية والامتضوعة بأريج الإيمان.

عندما كتبت عن (جماعة معرفة الذات) ظن بعض المتسرعين في الأحكام أنني أدعو أبناء الجبل النبلاء كي يتركوا ما لديهم من حكمة عرفانية شريفة ويتبعوا جماعة معرفة الذات. لكن هذا لم يكن القصد لأن معرفة الذات لا تتوقع ولا تطلب من أحد كي يترك ما لديه أو يتنكر لأصوله لأنه إن فعل لن يفلح في مسعاه ولن يكسب شيئاً يستحق الذكر، بل لن يكون وفيّاً للطريق الجديد الذي ينتهجه.

معرفة الذات هي حالة نفسية قبل أن تكون مؤسسة ذات كيان مادي، وهي غير منفصلة عن واقع الإنسان أو بعيدة عن الحدث المعاش.

بل أن أحد أقطاب معرفة الذات المعلم لاهيري مهاسيا كان يضع شرطاً على كل راغب في الحصول على تعاليمه وهي أن يبقى ملتزماً بالعبادات والتقاليد الطيبة التي نشأ وتربى عليها، وأن يحافظ على عباداته الأصلية بالطريقة التي يرتاح لها. فالعبادات الصادقة موجهة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى الله سبحانه وتعالى.

وهناك مثال يعرفه الجميع : آمن بالحجر تيراً. وهذا معناه أن الإيمان الصادق يجد طريقه إلى الله السميع المجيب والدائم القرب من الذين يتقون به ويرجون عونه، وما خاب من على الله اتكل.

عندما يفتح الإنسان قلبه يفتح الله عليه فتحاً مبيناً ويزيده علماً ونعمة. لا نستطيع رؤية الشمس عندما ندلج في العتمة أو نجلس في الظلام. وليس من المنطق أن نتوقع من أشعة الشمس كي تتسرب إلى مساربنا حتى تغمرنا بفيضها، بل من واجبنا الخروج من الحجرات المظلمة إلى الفضاء الطلق والرحب حيث الهواء المنعش والشمس التي تغمر الدنيا بضيائها المحيي.

وعودة إلى الحكمة الشريفة التي لها مكانة خاصة في قلوب الموحدين الذين يجتمعون على ذكر الرحمن في حلقات الخير بنوايا تحاكي البلور صفاء وقلوب تنبض إيماناً وتلتهب شوقاً للحضرة الربانية التي لا لذة للحياة دون التواصل معها والإحساس بقربها.

وهذه الحكمة الحبيبة على قلوبنا هي زاد التقوى في رحلة العمر والشراب السلسبيل في صحاري الدنيا وبراريها المقفرة. وهي الصوت الأمين الذي يحن له القلب ويطمئن إليه وسط صراخ الواهمين وأوهام الصارخين في أودية الضياع.

الحكمة الشريفة هي نبراس مشع ينادي التائهين في ليل الخداع كي يترسموا السبيل الصحيح ويقتفوا الأثر عاندين إلى حيث الأمانة والأمن والأمان.

الحكمة الشريفة هي طمأنينة النفوس المتعبة ذات الرجاء، والفرح المتجدد الذي يغمر بسطاء القلوب ويجبر بخواطيرهم. وهي الغلالة الأثيرية المباركة التي تميز الأرواح الشفافة المتحابة لا المتحاربة.
وهي عمر الوفاء الطويل، والينبوع الأصيل الذي يتدفق بماء الحياة.

الحكمة الشريفة هي كنز لا يمسه النفاق ولا يحيق به الفناء لأنه جوهر لطيف لا تقوى عليه المادة وعناصرها الكثيفة.

كل الذين يحترمون الحكمة الشريفة ويعرفون قيمتها يفيض عليهم الله من مناعمه القدسية فيغمر بصانرهم بالنور الأسنى ويروا الأشياء دون تمويه كما لو كانوا يعاينوها في وضوح النهار.

إن من يحترم الحكمة الشريفة ويمشي بنورها فقد حوى في صدره علماً وفي قلبه حلاً وفي كيانه فيضاً من البر والبركات.

فتحية إلى الحكمة الشريفة التي هي ثمرة الإدراك اليقيني للروح العليا أو إن شئتم لمعرفة الذات وتحية لكل المؤمنين بها ولمقدريها حق قدرها.
والسلام عليكم.

محمود مسعود